قراءة الكود الجيني في رواية "مجنون الحكم لبنسالم حميش"

"نحو رؤية سيميائية بيولوجية جديدة"

فاطمة حسن حامد (*)

الملخص:

يهدف البحث دراسة صناعة المعنى داخل النظام الفني الروائي الذي يعتمد على النظام اللغوي – العصر الوسيط - من خلال أدوات الذاكرة في صناعة الفعل الثقافي وتطوير الشفرة العضوية ونموها داخل السيموزيس، حيث تتحكم الذاكرة الثقافية في البنية الصناعية والإنتاجية للمعنى الروائي، وبالوقوف على السيميائيات الحديثة ودوائر السيموزيس، ودور المواد الوراثية في السيميائيات البيولوجية فإن العلامات الثقافية تنزاح، فينتج النص الروائي سيرورة إيحائية توسطية تجسر المسافة بين الماضي والمستقبل والتاريخ والواقع المشؤوم، بل والمستقبل المتوقع أيضًا، وقد طور البحث من النظرية البيولوجية مقدمًا استعارة فنية عن الحمض النووي وتكوينه داخل النص الروائي من خلال إعادة ترجمة النص الروائي وأكواده، ويستهدف البحث دراسة صناعة الذاكرة الثقافية للمنتج الروائي؛ لتبيان إشكالية الذاكرة بين مصافيها الثقافية وآليتها التداولية في إعادة إنتاج الأكواد الجينية لاسيما وقدرتها على الصناعة والبرمجة تفتح عوالم الإنتاج، ومن هذه الزاوية فإن أهمية دراسة النسيج النصي للثقافة تكمن في دراستها وفق منهج السيميائيات البيولوجية.

الكلمات المفتاحية/ السيميائيات البيولوجية، الأكواد الجينية، الذاكرة الثقافية.

(*) هذا البحث مستل من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحثة، وهي بعنوان: [تمثيلات الأدب الوسيط في الروايات المعاصرة دراسة سيميائية لنماذج مختارة]، وتحت إشراف: أ.د. مصطفى الشورى- كلية الآداب – جامعة عين شمس & أ.د. سعيد الوكيل – كلية الآداب – جامعة عين شمس.

Summary.

The study explores meaning-making in the narrative artistic text based on the language system- middle age- through memory tools in making the cultural action and the development of biocode transformations within semiosis. Cultural memory controls the industrial and productive structure of narrative and visual meaning. By examining modern semiotics, semiosis cycles, and biosemiotics itself , the cultural signs are displaced, and the narrative text produces a suggestive, mediating process that bridges the space between the past and the future, the history and the ominous reality, and the expected future as well. History is a language system and a verbal signifier that was reactivated by the author as a signifier linked to the translation and modulation of the artistic system of middle culture. Thus, the text becomes an artistic structure that embodies culture through sensory perceptions of human experience in temporal dimensions. The research developed the biological theory by introducing an artistic metaphor of DNA and its form in the narrative text. It tackled the cultural memory making of the narrative product to highlight the memory problem between the refineries and the pragmatic mechanism of cultural memory in reducing cultural biocode ,especially its ability to manufacture and program that opens up worlds of production to approach the ancient text and visual text. Consequently, it is important to study the textual fabric of culture according to biosemiotics.

Keywords: Biosemiotics; Biocode; Cultural semiotics.

المقدمة.

إن التحول من النظام المجرد العام-اللغوي- إلى النظام الخاص القيمي-الفني- لا يمكن أن يتم إلا من خلال الإمساك بالعلاقات والدلالات الكلية والجزئية التي تولد النسق الثقافي والرمزي، إذ لا يتم تحيين القيم الاجتماعية إلا باعتماد سلسلة من الأنساق الثقافية وأكوادها وقواعدها التي تعتمد على النص بصفته ذاكرة دينامية تصوغ الدلالات النفسية والتاريخية والقيمية والاجتماعية؛ المتباينة في اشتراطاتها وطرق صوغها، فتصبها في وعاء مشروط بالامتداد الزماني والتاريخي؛ ولهذا شكلت ذاكرة التاريخ القوالب التي يعاد إنتاجها بهندسة مشروطة من الزمن وقواعد الانتقاء الرمزي للأحداث، وإذن يشكل الإمساك بالدلالات مرحلة الوقوف على التجارب الإنسانية ذات الأبعاد الخفية والتلوينات الثقافية الظاهر والمسكوت عنها منبثقة عن بنية المعنى وتجلياته؛ ومن هذه القصدية تتجاوز آلية السيموزيس النظر للذاكرة بصفتها وعاءً تخزينيًا إلى كونها "بنية دينامية معقدة ومتشابكة ترتبط بالإنتاج والتداول، فالذاكرة ترتبط عضويًا بعمليات الدماغ التي ترتبط بدورها بآلية انثباق المعنى وتأثيره في الوسط الثقافي التواصلي داخل السيموزيس، وبذا فإن صناعة المعنى داخل العملية السيميائية تتم بفعل آلية إنتاج العلاقات المتشابكة للذاكرة، فالفضاء الذي يشتغل فيه السيموزيس هو فضاء الذاكرة والآلية التي تكتسب من خلالها الذاكرة ديناميتها هي السيرورة التدليلية"[(١)]؛ ولهذا تحتل عمليات الذاكرة واتصالاتها الديناميكية الداخلية والخارجية مكانة مهمة في السيميائيات البيولوجية حيث تركز على لغة الحياة داخل الشفرة الوراثية؛ ولهذا تجاوز البحث نظرة السميائيات البيولوجية للشفرة الوراثية بصفتها عملية وآلية تواصلية داخل السيموزيس إلى رؤية جديدة مفادها النظرة إلى الشفرة بصفتها استعارة وعالمًا فنيًا يتكون من العملية الافتراضية المعقدة للمراسلات بين النيكلوتيدات والأحماض الأمينية والبروتين بخلاف الإنزيم وآلية قراءته لسلسلة النيكلوتيديد وهي رؤية تطورها الباحثة انطلاقًا من المبدأ السيميائي الرئيس للسيميائيات البيولوجية ألا وهو ترجمة النصوص الأدبية ونمذجتها.

(١) انظر: عبد الله بريمي: السيميائيات الثقافية مفاهيمها وآليات اشتغالها(المدخل إلى نظرية يوري لوتمان السيميائية)،ط١، الأردن: دار كنوزالمعرفة، ٢٠١٨م، ص٧٥-٧٦.

ومن ثم تتخذ الذاكرة في صناعتها رؤيتين؛ إحداهما: رؤية حقيقية يستدعى فيها الكود كما هو بثقافته وتفاعلاته وعلاقاته، والرؤية الأخرى مزيفة تثير في استدعائه حبكة العالم الروائي وتعقيداته، مما يعقد ويطور من شكل الكود البيولوجي والثقافي، ويتم التفاعل بين صور الماضي والحاضر للكود بشكل تعاقبي وتزامني، ومن هنا يمكن القول إن أهمية السيميائيات البيولوجية تنبثق عن اهتمامها بآلية صناعة المعنى داخل عمليات الدماغ في النص أي داخل الذاكرة الثقافية للنصوص، حيث يأتي النص حاملًا للشفرة الوراثية التي شكلته، وعلاقات الشفرة الداخلية وهي العلاقات البيولوجية وتكويناتها المجازية التي تعود على المجتمع والسياقات والعوالم التي أنتجته، فالنص حامل لعلامات بشرية ثقافية واجتماعية وليست علامات بيولوجية جوهرية، فالسيميائيات البيولوجية تنظر للنص الوسيط بصفته كائنًا حيًا، كما تنظر لذاكرة النص الثقافية من وجهة نظر سيموزيسية، أي إنها تحمل حمضًا نوويًا مجازيًا، وهذا الحمض يحمل جينات وراثية شكلته ثقافيًا، والجينات تحمل بدورها إرسالية ثقافية داخلية تتحكم في آلية التوالد الإنتاجي لذاكرة الأدب الوسيط الثقافية داخل النص الروائي، كما إن هذا الجين يمثل علامة وفكرة، وبذا فإن آلية توالد الذاكرة ونموها تنبثق عن العلامات وليست عن عمليات ديناميكية.

وعلى ذلك، فإن الدراسة تجيب عن أسئلة مفادها: كيف تصبح النصوص ذاكرة وكيف تختزل الذاكرة داخل العلامات؟ ما الظواهر التواصلية المعنية بالكود الثقافي وتجربته الإنسانية الحاضرة؟ كيف يمكن للنصوص التي اتخذتها الباحثة مادة للتحليل والدراسة أن تشكل كونًا سيميائيًا؛ لتمثيل صوت الهامش بصفته مؤولًا لعلامة دالة على التاريخ الراهن؟ كيف تفاوض ذاكرة النص الروائي الذاكرة الثقافية محافظة على الوظيفة والأثر؟ كل هذه التساؤلات يجيب عنا البحث مقدمًا مقاربات حية عن الذاكرة وأكوادها؛ لتوضح آلية إنتاج الذاكرة وصناعتها للنسق الثقافي وكيفية اختزاله داخل العلامة وعملية تكاثره داخل النص الروائي، وجميع المقاربات تسعى إلى معرفة أعمق للمستويات المحايثة للمعنى، وفي إطار ما سبق يسعى البحث إلى التركيز على مفهوم المواد الوراثية أو الكود الجيني داخل نظرية السيميائيات البيولوجية وآلية صناعته في النص الروائي وذلك من خلال الوقوف على ثلاثة نقاط هي: السيميائيات البيولوجية (الموضوع والأهمية)، والمواد الوراثية (الآلية والنمو)، تطبيق نمو الكود الجيني(المادة الوراثية) داخل النص الروائي موضع البحث.

أولًا- نظرة في السيميائيات البيولوجية.

وقد ناقشت الباحثة نظرية السيميائيات البيولوجية من خلال الوقوف على المحاور الآتية:

أ-المفهوم.

ارتكزت السيميائيات البيولوجية على مفهوم السيموزيس بوصفه سيرورة حول دراسة تطور المعنى، حيث كان لآراء مؤسسي علم دراسة الإحياء النظري؛ أمثال: هوفماير ودياكون وإكسيكيول(٢) وسيبوك(٣)؛ دور في تطور النظرية، وخاصة رؤيتهم حول العالم ودراسة الظواهر الفلسفية وقدرتها على الاستمرارية داخل كون قادر على التعبير والتفاعل بدينامية، وقد انطلق دورهم من خلال دراستهم عن استمرارية تفاعلات النظام البيولوجي الذي يتقاسمه البشر مع جميع الكائنات الأخرى، وتستهدف السيميائيات البيولوجية النص بصفته:" كونًا وتستهدف معلوماته بوصفها معاني أو أفعالًا ذا مغزى تفترض اتجاهًا ذا قيمة أو مركزية؛ ترتبط معلوماته بمعلومات في اتجاه آخر ضمن العلامات والعمليات، فحياة النص التحليلية تتوقف على الحياة العقلية للنص"(٤).

ومع ذلك، لا تنفصل الدراسة السيميائية التي تبحث حول المعنى عن دراسة علم الإحياء النظري التي تستهدف المعنى البيولوجي والإدراكي، فالسيميائيات البيولوجية علم يتعلق بعلم دراسة الإحياء إذ يتعالق أفقيًا مع بعض آلياته التفاعلية، فمصطلح السيميائيات البيولوجية:"منحوت من كلمتين بايو التي تعني الإحياء، وسيموتكس التي تعني السيميائيات وهو العلم الذي يدرس صناعة المعنى عبر الإعلانات ويمكن تعريف السيميائيات البيولوجية؛ بأنها دراسة علم الإحياء وتفسيرها على أنها أنظمة ... وفي المنشور التعريفي بالمؤتمر الثامن عشر الذي أقيم في جامعه كاليفورنيا من ١٧ ل ٢٠ يونيو عام م٢٠١٨ للسيميائيات البيولوجية

---

(٢) انظر جهود إكسيكيول: علوي الملجمي: تشارل سانرس بيرس وجاكوب فون إكسيكيول في السيميائيات الحديثة، مجلة دراسات فلسفية، ع٥١، ٢٠٢٤م، ص١٠٤-١١٢.

(٣) انظر تعريف: علوي الملجمي: تشارل ساندرس بيرس وجاكوب فون إكسيكيول في السيميائيات الحديثة، ص ١١١-١١٢.

(4) Pual Cobly: Cultural Implications of Biosemiotic,Biosemiotic15,Springer Science+ Business Media Dordrecht, 2016 ,p.1-5.

عرف السيميائيات البيولوجية؛ بأنها برنامج بحثي متعدد التخصصات يحقق في أشكال متعددة من الاتصال والتأشير الموجودة في الأنظمة الحية"[(٥)].

هذا، وتعتمد النظرية في دراستها على مصطلحات علم السيمياء مثل: السيموزيس، والإدراك، والمعنى، والتطور، والحرية، والترجمة، والنمذجة، بالإضافة إلى مصطلحات علم الإحياء النظري مثل: التمثيل الغذائي، والحساسية الوراثية، والمغزى البيولوجي للشفرات، فضلًا عن آليات عمليات الهندسة الوراثية مثل: عمليات التوقع من تتابعات الشفرة الجينية، ويحيل النمو الوراثي للجين إلى نمو العمليات التشفيرية بين الخلايا في الكائن، فيتمكن قارئ الشفرة من توقع السلوك العرضي للحيوانات، ويعيد السيميائي قراءة هذه المصطلحات داخل النصوص والسلوك البشري بآليات تفاعلية جديدة لمنظرين سيميائيين بيولوجيين كثر؛ ومنها": اللغة(ثنائية العقل والمادة) في أطروحة دياكون، والفكر الرمزي المجرد(الجين والشفرة) في رؤية هوفماير وسيبوك، والإدراك(السلوك و كونه الذاتي) في أطروحة إكسيكيول وسيبوك، دامجين بذلك السيميائيات ودلالتها التواصلية بعلم الإحياء النظري بصفتها علمًا معرفيًا دقيقًا، فتعرف السيميائيات البيولوجية: مصطلح الدلالة على دراسة لغة الحياة التي ظهرت بعض ملامحها في الشفرة الوراثية التي تشكل اكتشافها بين عامي ١٩٦١م و ١٩٩٦م"[(٦)]، ومن ثم، انطلقت السيمياء البيولوجية نحو مصطلح الشفرة البيولوجية وقيود الذاكرة البيولوجية داخل النصوص وعملياتها الإدراكية.

ب-موضوعها.

ارتبطت السيمياء البيولوجية بالثقافة نحو رؤية جديدة لفهم العالم حيث تعرف السيمياء البيولوجية الثقافة بوصفها:" مختلف ممارسات الفرد العلمية، إذ تكشف العلاقات والعمليات في التجارب الأولى للشخص وفي اختلافاته الثقافية[(٧)]، ودائمًا

(٥) انظر: علوي الملجمي: ذاكرة المثل الشعبي في محافظة البيضاء اليمنية دراسة في ضوء السيميائيات الثقافة، مجلة الموروث، دورية إلكترونية، ع٢٥، مارس ٢٠٢٢م، ص١٠.، انظرأيضًا: حسيب الكوش، البيوسيميائيات، من الطاقة إلى المعنى، ط١، الأردن، عمان، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ٢٠١٩، ص: ١٦.

(٦) انظر: علوي الملجمي: ذاكرة المثل الشعبية/

see too: Pual Cobely: Cultural Implications of B Biosemiotic,p.6-15.

(7) Paul Cobley: Cultural Implications of Biosemiotic,p.17.

تبحث في كيفية مشاركة أشكال الحياة في المعرفة والثقافة بوصفها مجموع ممارسات ثقافية وعلمية، كما تبحث في كيفية بناء عمليات الإشارة للتنوع الكامل في الحياة وكيف ترتبط بتطور الأشكال العضوية وبتنظيمها الوظيفي لقواعد المعنى وتعدده.

ومن ثم، يختلف التحليل الثقافي للسيموزيس وفاعليته عن تحليل علم الإحياء النظري للسيموزيس الخاص بالكائن الحي وممارساته المختلفة، وقد شكلت السيميائيات البيولوجية المعيار الرئيس في هذا البعد الإنساني والفلسفي من العلوم، إذ شهدت العلاقة التفاعلية بين السيمياء البيولوجية والعلوم الإنسانية تغيرًا معرفيًا كبيرًا في الدراسات الحديثة، فاستطاعت تغيير العلم "بإدراكها آلية الترجمة، ومشاكلها بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، وتهدف تحليل أنظمة الإشارات داخل الكون الأكبر، كما تهدف دراسة كيفية عمل البشر وسط العلامات، وما يميز إدراكهم وكونهم بصفتها ظواهر سيميائية داخلية بين الأكوان الذاتية، وبين بعضها البعض داخل الكون السيميائي"(٨)، ومن هنا يمكن القول إن أهم سماتها التفاعلية داخل النصوص؛ هي: عدم النظر إلى الجينات والشفرات بوصفها علامة تواصلية، بل بوصفها تجربة فردية للكائن الحي تحمل علامات وتتكون في طبيعة تفاعلاتها مع الآخر.

<u>ج-أهميتها.</u>

تنبع أهمية دراسة السيميائيات البيولوجية من ارتباطها الحديث بالعلوم الإنسانية، وقدرتها على تغيير العلم، فضلًا عن إدراكها آلية الترجمة ومشاكلها بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية كما سبق أن ذكرت، كما تتعلق أهمية السيميائيات البيولوجية بتفاعلها داخل التحليل الثقافي، وما بين فاعلية الإدراك للسيمياء البيولوجية، وتضخم الرؤية المنهجية للتحليل الثقافي، تقف أهمية السيمياء البيولوجية على الأنا الثقافية للكون السيميائي داخل جميع العلوم الإنسانية والبيئية والثقافية؛ بثورة تدشن فهم الثقافة داخل الصراعات المركزية المتعلقة بالأكوان الذاتية وباللغة(٩).

(8) Paul Cobley : Cultural Implications of Biosemiotic ,p18-19.

(٩) راجع: علوي الملجمي: ذاكرة المثل الشعبي.

هذا، وتسعى السيمياء البيولوجية إلى التركيز على آلية اشتغال المواد الوراثية وعمليات الإدراك، وتمر آلية الاشتغال لهذه النظرية بعدة مراحل؛ هي:" مرحلة التوقع بصفتها البداية، ومرحلة الاختيار بتقليص حرية المعنى، ومرحلة تمأسس المعنى بتدشين شكل واضح للمعنى وتمييز ظواهره الداخلية عن ظواهره الخارجية، ومرحلة التطور بملاءمة العناصر الداخلية للمحيط الخارجي، ومرحلة ثبات المعنى باتخاذه صورة العادة السلوكية في تكيفه مع المحيط الخارجي، والمرحلة الأخيرة: تأويل السيموزيس داخل المعنى وقدرته على الاستجابة للمؤشرات الخارجية والداخلية المؤثرة في التفاعلات الداخلية"[١٠]، وبهذا فإن السيمياء البيولوجية أسهمت في استكشاف فاعلية الدلالة ومشاركة الرؤى مع العلوم الأخرى دون الإفراط في العملية الإرادية للكائن الحي، فالثقافة مركز الإنسان الحي، والسيمياء البيولوجية تسلط الضوء على دراسة عمليات الإدراك داخل لغة الكائن الحي وخارجها بصفتها مركز صناعة المعنى.

د-مؤسسوها.

هذا، وقد تعددت الرؤية المنهجية لمؤسسي السيميائيات البيولوجية؛ فما بين بداية رؤية هوفماير وتركيزه على سيرورة السيموزيس في الطبيعة والعالم، ورؤية دياكون حول ثنائية العقل والمادة؛ وتفاعلها داخل مبدأ الاعتباطية في ديناميكية المعنى وآلية اشتغال الوعي، وكيف يمكن للمادة أن تصبح عقلًا والعكس؟ ومفاد رؤيتها: التركيز في مفهوم السلوك والعادة في أفعال الكائنات وفي تفاعلها مع بعضها البعض على "العادة"؛ إذ تصبح ذا عقل ديناميكي في استمراريتها داخل التفاعلات التي تحيل إلى ميكانيزم وعي الذات وقدرتها على تنظيم الحياة، فضلًا عن الاكتفاء الذاتي وتطوره بالاستجابة وتوليد المعلومات، حيث " تصبح التجربة العاطفية عادة ترتبط بالتمثيل الغذائي في تنظيم ديناميكيات عملية الإدراك لتوليد المعلومات داخل العقل، فالتغذية العاطفية تمكن الكائن من إعادة تنظيم ردود الفعل الإدراكية للمعلومات، كما تعيد إنتاج سلوكيات جديدة، وما يحدث من تشويش الكائن الآخر؛ يؤدي دورًا فعالًا في توازن التنظيم الذاتي لعلمية الإدراك، فتزداد استمرارية

(10) K ALEVI KULl: Biosemiotics In The Twentieth Century: A view from Biology,N. 0037-0127, 99/1998 -See too. Walter de Gruyter, Semiotica, N.127-1/4 (1999), P.385-414.

تكاثر المواد الوراثية للخلية التي تعتمد على الصراع بين المادة والعقل، هذا الصراع يسهم في ديناميكية سيرورة السلوك للسيميائية البيولوجية، ورصد تفاعلاته... فالمادة والعقل ليسا مختلفين بل هما جانبين مختلفين من نفس المادة، والعلاقة بين المادة والعقل تمكن القارئ من فهم ما تقوم به الطبيعة من ثقافة، وما يتأثث عليها من ركائز في الطبيعة كتثبيت العادة في العقل، في حين أن قوانين العقل المنتجة للثقافة قد أظهرت اختلافات في الممارسات الثقافية"(١١)، وقد كان لرؤية سيبوك وفون أكسيكيول حول المواد الوراثية والكون الذاتي دور في تحديد استراتيجية التفاعل داخل السيمياء البيولوجية، وتحديد آليات تكاثر المواد الوراثية داخل النصوص، ومن هنا صاغ سيبوك رؤيته حول المواد الوراثية البيئية من خلال مفهوم الكون الذاتي لإكسيكيول والإدراك المعرفي وتواصله.

وبهذا تتعدد اتجاهات التأطير الإبستمولوجي لسيميائيات البيولوجية؛ فهناك اتجاه يدرس الرموز العضوية أو الترميز الذي تقوم عليه الاتصالات بين الخلايا الحية كافة؛ وهو اتجاه سيبوك، واتجاه آخر يدرس السيموزيس في الثبات الإدراكي؛ وهو اتجاه هوفماير، واتجاه آخر مهتم بالدماغ وعمليات الإدراك وعمليات الذاكرة فيما يرى إكسيكيول، فما يوحد هذه الدراسات؛ هو: السيموزيس بصفته آلية اشتغال لجميع مناحي الحياة؛ "لذلك قرر المجتمعون في المؤتمر الثانوي الرابع للسيميائيات البيولوجية عام ٢٠٠٤ م في براغ؛ أن ما يوحدهم هو إدخال المعنى في علم الإحياء، وأن موضوع السيميائيات البيولوجية؛ هو: كل ما يشكل سيموزيس في كل ما هو حي... ولهذا فإن الشفرة الوراثية بوصفها مصطلحًا معقدًا ينطوي على عمليات تواصلية قائمة على السيموزيس، حيث تدير المراسلات بين ثلاثة تواليف من النيكوليتودات والأحماض الأمينية، ومن ثم فإن مفهوم الكود أو الترجمة قد تطور في استخدامه داخل مستويات التأويل، كذلك فإن السيميائيات البيولوجية تهتم بالدماغ والذاكرة خاصة ما يتصل بالجانب الاتصالي الديناميكي للآلية، وأيًا كان الأمر فإن دراسة الذاكرة من وجهة نظر سيموزيسية في كل النظم البيولوجية هو أمر غاية

(11) see: Paul Cobley : Cultural Implications of Biosemiotic,p25-28.

في الدقة والتعقيد، فهو يكشف عن نتائج غاية في الأهمية حيث تصبح عملية الذاكرة في حد ذاتها عملية الحياة"[12].

ثانيًا-المواد الوراثية.

وقد وقف البحث على مصطلح المواد الوراثية البيولوجية؛ مركزًا على الأربع نقاط الآتية:

أ-المفهوم.

تركز السيميائيات البيولوجية على الإنسان بوصفه كتلة من العلامات التي تستخدم الإشارات بحكمة، فتنقل الرسائل غير اللفظية داخل وخارج الجسم؛ ولأن رؤية سوسير اللسانية لم تتوافق مع رؤية البيوسيموتيك العضوية للعلامة، فإن رؤية بيرس شهدت توافقًا ملحوظًا مع رؤية سيبوك في أواخر السبعينات، وخاصة بعد "اكتشاف الطبعة الألمانية لإكسيكيول عام ١٩٧٩م، حيث بدأ سيبوك في تطوير علم الإحياء النظري مركزًا على الأومفيلت، بوصفه العالم الموضوعي الذي يحوي الإنسان والعلامة، وكان منبع التوافق البيرسي الإكسيكيولي هو مفهوم الإشارة بوصفها إشارة شخص ما، وكان لخلفية سيبوك في علم الإحياء أثر في توظيف علم الإحياء النظري داخل الطبيعة الإنسانية ، وبالرغم من ابتعاد علم الإحياء عن ديناميكية الطبيعة، فإن علم الإحياء قرَّب الطبيعة الإنسانية من المعنى الثقافي أي قربها من الارتباط والانسجام مع الكائنات الأقل تعقيدًا"[١٣]، وبذا فإن البيوسيموتيك أسهمت في الكيفية المعرفة للعمليات الفكرية وسبب تغاير الكائنات الحية وتمايزها في سلوكها عن بعضهم البعض، حيث يميل علم الإحياء إلى محاكاة التشبيه ويحدد العملية السيميائية للثقافة بخضوعها لمبادئ: الإدراك، والتأويل، والمعني، وتصبح الثقافة معيار البقاء في الحياة؛ ولأن الذاكرة تمثل آلية البقاء بوصفها ركيزة السيمياء البيولوجية فإن استخدامها بصفتها عملية تشابكية تعمل على التعرف والتطور والوراثة يقنن القيد التعاملي للأنظمة الحية مع بعضها البعض، فكل نظام أو كائن حي له ذاكرة سيميائية يتفاعل على إثرها بالتأقلم أو العكس، فمن سمات الذاكرة صفة التعلم التي يستجيب لها الكائن ضمن مفهوم "العادة"، وصفة الوراثة

(١٢) انظر: علوي الملجمي: ذاكرة المثل الشعبي، ص١٠- انظر أيضًا: حسيب الكوش، البيوسيميائيات، ص: ١٦.

(13) Paul Cobley: Cultural Implications of Biosemiotic, p.85-90 .

التي تحوي مجموع شفرات؛ هي الشفرة الجينية، والعصبية، والاجتماعية، فالتعامل داخل شبكة الأومفيلت يحتاج للذاكرة لتنسج علاماتها ومعانيها التشابكية.

أما عن الكود أو الشفرة الثنائية التي تطرحها السيمياء البيولوجية، فقد طور سيبوك مفهوم الكود بتركيزه على سيميائية إيكو لدراسة الاتصال؛ بصفتها علامات تمثل الكائن؛ فهي مستقلة عما يعبر عنه، فالكود يستقل وينفصل عما يشير إليه، فهو نظام قائم بذاته فضلًا عن وظيفته التواصلية والمرجعية وطابعه التفاعلي، ومن هنا يمكن القول إن رؤية إيكو للكود حول مرجعيته بصفته وحدة ثقافية تؤثر في مفهوم الكود للسيميائيات البيولوجية، وخصوصًا قوة الكود وقدرته على تحديده، إذ ترتبط بدرجة التشفير من حيث الترميز القوي والترميز الضعيف؛ ونتج عن هذه المعلومات إشارة سيبوك إلى أنوع الأكواد في خمسة أقسام؛ هي: الشفرة المناعية، والجينية، والأيضية، والعصبية، واللفظية، معتمدًا على التكاثر والنسخ داخل آلية اشتغال الكود ضمن سيرورة خلق المعاني"(١٤).

وقد شهد تركيز باربيري حول الكود الجيني فاعلية في تطوير سلالاته برموز خالية من التكيف مع الحياة حيث تم استبدالها من خلال التأويل الحر من قبل الكائنات الحية، وفي عام ١٩٧٢م قدم سيبوك دراسته حول الشفرة الحيوانية؛ محددًا طورها التكويني بظهور ملامحها في الطور الأول من حياتها ثم تحول ملامحها إلى الزوال بالتدريج، ويتم تقييد حرية تأويل الكود من قبل استعمالاته وسياقه.

ب-<u>آلية عمل المواد الوراثية داخل الذاكرة.</u>

إن آلية اختيار الكود من وحدات مسبقة الصنع يتم بناءً على اختيار الرسالة بتوافقها مع الكائنات ضمن برنامج جيني يقر مجموعة من ردود الفعل الجاهزة مع الإشارة إلى مخزون الذاكرة لكل حيوان، ثم تحدد طريقة قراءة البرنامج الجيني، وما بين التفاعلات الإرسالية لتوصيل الكائن تجربته وتخوف المتلقي من الرسالة يظهر مخزون المعرفة للجماعة بتفعيله لقراءة البرنامج الجيني؛ ولأن الذاكرة تستخدم المواد الوراثية مسبقة الصنع والتخزين في تأويل الكود وتفعيله، فإن الشفرة الجينية

(14) Paul Cobley: Cultural Implications of Biosemiotic , p.83-87.

تمثل أهم الشفرات التي تعامل معها سيبوك وفعلها داخل النصوص، ويمكن احتسابها أكثر الشبكات السيميائية معيارية عن جميع الشبكات الأخرى(١٥).

ج-شكل الكود.

تأثر سيبوك برؤية جاكبسون حول تحديد الرسالة بصفتها هدفًا لعملية الاتصال بدلًا من الكود؛ موضحًا الفرق بين شكل الكود في اللغة –والذي يهتم بالوحدة اللغوية والجينات اللفظية- وشكله في الاتصال، حيث قام سيبوك بتحديد شكل الكود في دراسته للاتصال من خلال تقديم النمو العلاماتي للرموز وديناميكيتها في الاتصال، فالهدف من الاتصال كما أوضح مالر هو: "تفاعلات العلامة الفردية، وليس العلامة الفردية في ذاتها، وبذا أشار سيبوك إلى ديناميكية الرموز وتغييرها بل وعدم ثباتها، وفي عام ١٩٧٢م طرح سيبوك سؤالًا حول ماهية العلامة؟ وكيف تؤثر البيئة واضطراباتها فيها؟ وقد أجاب بتوضيح العلاقة الخفية بين آلية عمل الشفرة الجينية والشفرة اللفظية، كما أوضح نوعية الرموز وعلاقتها بالمكان ما بين رموز محلية وتقليدية، وفنية، ورموز غير لفظية، وعرف الكود بوصفه نظامًا من العناصر الدلالية التي يمكن نشرها لتمثيل أنواع من الظواهر بطرق محددة، وأوضح تأثير المرونة الشكلية وعلاقتها التفسيرية في الشفرة الوراثية، والتكوينات الهجينة للرموز(١٦).

هذا، وينبثق النمو العلاماتي للرموز عن عدم التماثل الشكلي، ففكرة ثبات الشكل تتعارض مع ديناميكة التفاعل والاتصال، وبذا تتوقف الرموز على ملامح السياق والاتصال في نموها العلاماتي داخل النصوص، وكان للمناقشة التي دارت بين سيبوك وباربيري وهوفماري عام ٢٠٠٧ م، أثر في توضيح عدة مبادئ منها؛ أهمية الرمز العضوي، ودوره في التعقيد وديناميكية الأنظمة، وظهور الرموز اللاجينية؛ وهي: الرموز التي تعتمد زيادة مستوى التعقيد بإعادة صناعة بنية المعلومات غير المحددة، وركزوا على إعادة بناء البنية من خلال "التكرار" وما يحمل من وظيفة إبداعية، وعلى مستوى البنية الشكلية تظهر عملية إعادة البناء بتغيير شكلها بناءً على المعلومات المخزنة في الذاكرة، ومنها أيضًا: بروز الجين العضوي داخل مصافي الذاكرة العضوية حيث تظهر درجات تعقيده من خلال التخلق

(15) Paul Cobley: Cultural Implications of BiosemiotiC,p.85-90
(16) Paul Cobley: Cultural Implications of Biosemiotic, p.88.

العضوي للكود العضوي، وبهذا تبرز محتويات الخلية في ثلاثة أنماط؛ أحدهما: النمط الظاهري؛ وهو الشفرة الجينية فيحتوي على شفرة جينية وكود عضوي؛ ويرتبط هذا النمط بالنمط الوراثي في علم الإحياء الدلالي، والنمط الثاني؛ هو النمط العقلي: الذي يرتبط بعملية إعادة بناء المعلومات داخليًا وخارجيًا بزيادة مستوى التعقيد من خلال إعادة بناء عقلية الفرد وعقلية الوعي الجمعي للجماعة، والنمط الثالث: حيث الصورة المثلى؛ نتيجة تطور الطبيعة والحياة والارتقاء، وتطور الرموز(١٧)، ويعد الكود الجيني معيار الوجود لجميع الأكواد، فباشتغاله في جميع الكائنات تتكون بقية الأكواد، ويظهر الكود العضوي نتيجة لتطور الحياة وطبيعة السياق ومعلومات الاتصال المكتسبة، ويقترح باربيري ارتباط المعنى بالمعنى من خلال الرموز، إذ ينتقل المعنى من عملية التعرف السيميائية إلى عملية تكوين بيولوجية مرتكزة على الكود.

د-تكوين الشفرة الجينية.

تتكون الشفرة الجينية من مزيج النيكلوتيدات والأحماض الأمينية والبروتين؛ ولتفسيرها يجب دمج جميع مكونات الخلية الداخلية، وقد ركز باربيري على الإشارات وتفاعلاتها الداخلية، وأوضح أن الإشارات الخارجية تهدف تفسير الخلية للعالم، في حين أن الإشارات في تفاعلاتها داخل الخلية تفسر فهم الخلية لنفسها ما يحيل إلى أهمية الرموز العضوية في تغير شكل الإشارة، فوجود الرمز دليل على وجود شيء ما في الطبيعة وهو ترميز ضعيف، وتبرز قوة الترميز في الفعل الداخلي للخلية فتظهر قوة الإشارات الخارجية في قطعة الأحماض الأمينية التي تظهر من خلال قراءة الريبوزوم لسلسة النيكلوتيدات ومن خلالها تستطيع تفسير الخلية، وتصدر إشارة الفهم للشبكة الخارجية للخلية عند حدوث فعل داخلي، وتتجاهله الخلية عندما يكون أثر الإشارة ضعيفًا، وكلما قل مستوى تفسير الخلية الداخلي كلما ازدادت قوة الشفرة العضوية(١٨).

هذا، ويعتمد علم الإحياء السيميائي على الشفرة الجينية وما يحدث بها من تطورات ثقافية وبيئية؛ ينتج عنها شفرات عضوية، فالكود العضوي يظهر نتيجة ظهور مجموعة كاملة من القواعد تستحدث أشياء طبيعية، مما يسهم في تطوير

(17) Paul Cobley: Cultural Implications of Biosemioti ,p.78.
(18) Paul Cobley: Cultural Implications of Biosemioti, p.80-87 .

الخلية والنظام، وهذه الخصائص البيولوجية تفسر طبيعة الحياة، وأصل التكاثر والتوالد في الخلايا، فهذه المبادئ العامة تمثل مشروع باربيري، وقد تطابقت بشكل كبير مع نظرية السيميائيات البيولوجية لكن باربيري لم يشر إلى المبادئ السيميائية التي ركزت على "حرية المعنى، وقدرته على التوالد، والقيود والعادة، والمصافي فالتخزين الموسوعي للمعلومات بين الكائنات؛ ولهذا حدد تعريف الكود في السيميائيات البيولوجية بوصفه طبقًا لكول: "مراسلات منتظمة أو روابط تنشأ أو تتوارث بين الكيانات عن طريق الحياة وسيموز التواصل، بيد أن للسيموزيس أسبقية على تواجد الرموز؛ فالرموز تتكون نتيجة للسيموزيس، ويستمر الرمز ويعيد بناء بنيته ووراثته بعيدًا عن السيموزيس لكنه يصبح رمزًا ضعيفًا بخلاف السيموزيس الذي لا يمكن أن يوجد دون ديناميكية الأكواد، فالترميز يتطلب عدة مبادئ حتى يحدث النمو العلاماتي للمعنى من خلال آليات؛ هي: الإدراك، الذاكرة، التصنيف، التعليم، فالشفرة ليست مسؤولة عن إنتاج المعنى وإنما السيموزيس هو الآلية الإنتاجية للمعنى، وللأكواد داخل عملية التعرف"[١٩]، ويميز باربيري الكود عن السيموزيس من خلال البنية التي يعتمد عليها الكود في بنائه، وتتضح من خلال الأحداث شبه الميكانيكية وتأثيرها، ويتطلب الكود فعلًا ثابتًا من الطبيعة حتى يصبح الترميز ذا كفاءة في التشفير، ويؤثر في السلوك.

كما يوضح باربيري أن الشفرات القوية يجب أن تكون ميكانيكية بالكامل، وليست مفتوحة للتأويل على الإنتاج، فلا يمكن تحديد الرموز القوية إلا من خلال عمليات الإمساك بالمعنى الصحيح، فازدواجية الكود تبرز قوة الترميز من خلال الرموز الرقمية ذات الطابع الاستقلالي والأناني في الفاعلية، ويختلف الترميز عن التشفير؛ فالترميز في الثقافة غير مطابق للترميز الرقمي الطبيعي، ويتميز الترميز الثقافي بسمتين؛ إحداهما: المكونات الداخلية مثل الشفرة الجينية، والسمة الثانية؛ هي": قابلية الخطأ لمثل هذه الرموز؛ ويتضح من خلال تأثير الشفرة الجينية في الطفرات، والتغيير الدائم في تسلسل النوكليوتيدات الذي يحدث في الكائن الحي باستنساخ مستمر للهوية، بالإضافة إلى قابلية الخطأ داخل المبادئ السيميائية مثل: التعرف والذاكرة والتصنيف والتقليد، والتعلم والتواصل[٢٠]، ومن ثم فإن هذه

(19) Paul Cobley , Cultural Implications of Biosemiotic ,p.89-90.

(20) Tommi Vehkavaara, Natural Self-interest, Interactive Representation, and the Emergence of objects and Umwelt: An Outline of Basic

المبادئ تثمر في طرح التفاعل مع الثقافة في جميع أنحاء الطبيعة، فعملية النجاح في الإدراك والتعرف على هذه المبادئ تحيل إلى نجاح البقاء في الطبيعة والثقافة.

وبعد هذا الطرح الموجز لموضوع السيميائيات البيولوجية وآلية الكود الجيني وصناعته يمكن القول إن البحث ينطلق من عملية هندسة العلامة وراثيًا أي تكاثرها وتوالدها داخل النص الروائي نحو إثبات ديناميكية الذاكرة الوسيطة وقدرتها الإنتاجية والانتقائية على توليد الجينات الثقافية داخل السيموزيس، كما يركز على تفعيل مصافي الذاكرة وقدرتها على التحكم في النص الروائي داخل مسالك وعوالم التأويل؛ الأمر الذي يتيح للسيرورة الدلالية نشاطًا غير مسبوق في العملية الترميزية الجديدة، حيث يعقب كل توالد للجين العضوي –العلامة- تطورًا داخليًا في صفاته المتوارثة نتيجة للصفات المكتسبة؛ فينتج جينًا مكتسبًا من طبيعة السياق وأيديولوجيته، وبذا تسعى السيميائيات البيولوجية إلى توقع تتابعات العملية الوراثية للشفرة والإنتاجية التوالدية للذاكرة.

ومن هذه القصدية تسعى الدراسة إلى رصد إعادة إنتاج النمو الجيني الوراثي(العلامات) لذاكرة الأدب الوسيط داخل النص الروائي من خلال: رصد نمو العلامة مكتملة الأركان أو معتمدة على نمو أحد عناصرها مثل: نمو عنصر المؤول أو النمو الموضوعي أو نمو الممثل داخل الرواية موضع الدراسة، وبهذا فإن النمو الجيني يحدث من خلال عالم البناء الاستعاري لصورة الجين، ويحمل النمو دلالات سيميائية حركية صريحة و ضمنية للدلالات النفسية والتاريخية والقيمية حول آلية توظيف المعلومة الوراثية، ومن هنا يستهدف البحث رصد نمو الكود الجيني داخل رواية "مجنون الحكم" متطلعًا إلى تقديم صورة عن الذاكرة الفاطمية .

<u>ثالثًا-نمو الكود الجيني في "رواية مجنون الحكم".</u>

تسجل الذاكرة الثقافية ملامح المجتمع الفاطمي مؤثثة عوالمًا ممكنة من الاستعارة التمثيلية والمحاكاة التخيلية للواقع، وتختزل الذاكرة ميكانيزم التصفية لتحدد الهوية السياسية والثقافية لعصر الحاكم بأمر الله، وداخل عملية إعادة الإنتاج ينمو النص الوسيط بصفته ذاكرة تجسد نسقًا يحمل علامة وراثية؛ ولأن النمو يحدث ديناميكيًا من خلال السيموزيس، فإن الترابط بين ذاكرة الأدب الوسيط وإنتاجها داخل

Semiotic Concepts for Biosemiotics ,(Sign Systems Studies),2003, P.31.

النص الروائي يكشف عن العوالم المنفتحة من توظيف التاريخ لاسيما وإحالته المرجعية تظهر بوضوح، وسيقف التحليل الثقافي على الوظيفة التذكيرية والإبداعية للنص مبرزًا سيميائية المعنى وطرق تداوله من خلال نصوص الذاكرة الثقافية الوسيطة حول مرض الحاكم: نص يحيي بن سعيد الأنطاكي من كتابه (صلة تاريخ اوتيخا) إذ يقول:" وكان سبب بغي الحاكم في جميع ما يقصده من هذه الفعال العجيبة -المتضادة التي تقوم في نفسه ويفعلها شيئاً بعد شيء -صنف من سوء المزاج في دماغه أحدث له ضرباً من ضروب المالنخوليا وفساد الفكر منه منذ حداثته فإن من المتعارف في صناعة الطب أنه قد يكون فيما يعتريه هذا المرض. أنه يقوم في نفسه أوهام ويتخيل أموراً وعجائب، ويكون كل واحد منهم لا يشك أنه على الصواب فيما يتصوره في جميع أفعاله، ولا يثنيه عن ذلك شان ولا يرده راد وأن قد يكون منهم من يظن بنفسه أنه نبي ومنهم من يتوهم أنه الإله بنفسه -تعالى كثيراً - ويكون يقوم من هؤلاء من اختلاط الكلام ظاهراً واختلاله ما ينكشف (به) حاله عند من يشاهده ويحادثه وتزول الشبهة فيه من أول وهلة. وربما كان تخليط أحدهم في الكلام مستوراً، وتكون هذه التخيلات والخواطر الرديئة تعرض له في أمور مستورة عن العوام، فتكون صورته عندهم صورة العقلاء. وحسن ظنهم به ونظرهم إليه كنظرهم إلى أفاضل الناس فإذا أطالوا اختبارهم بأن لهم ما انطوى عنهم في نقضهم. وهذه صورة الحاكم فإن نقضه كان يتبين لمن تطول صحبته له. وأما من هو بعيد عنه فإن أفعاله كانت توضحه له. وقد يستدل على حقيقة هذا المرض المستحوذ عليه أنه كان قد عرض له في حداثته تشنج من سوء مزاج يابس في دماغه، وهو مزاج المرضى الذي يحدث في المالنخوليات، واحتاج في مداواته منه - مع ما كان يعالج به - إلى جلوسه في دهن البنفسج وترطيبه به وإن كثرة سهره أيضا وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان والدائم مما يقتضيه هذا السوء المقدم ذكره. وإن أبا يعقوب اسحق بن ابراهيم بن نسطاس لما خدمه استماله إلى أن تسامح في شرب النبيذ وسماع الأغاني بعد هجره لها."[٢١].

أ-تحليل نص الأدب الوسيط بيولوجيًا.

تؤدي الذاكرة الثقافية للنص دور الحلقة في الكشف عن علاقة النصوص الثقافية للعصر الفاطمي ببعضها البعض وعلاقتها بسياقها السياسي، ومن خلال تمدد

(٢١) بنسالم حميش: مجنون الحكم، ط١، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص ٦٧-٦٨.

النص واختزاله داخل علامة رئيسة تتوالد عبر سلسلة من علامات النص الروائي، فإنها تحفظ ديمومة رسالتها التواصلية عبر الزمن، وبذا يمثل النص الوسيط - الجين العضوي- "فساد الفكر" بصفته علامة رئيسة، وقد تشكل هذا الجين جراء بروتين "المعاناة من الأوهام والتخيلات والهواجس النفسية" المكون من الحمض الأميني" كثرة الظنون والشك والتخليط" والذي صاحب علاقات الحاكم بمحيطه، وكشفت الذاكرة التراثية عن العوامل المساعدة المتمثلة في الطبيب بمعالجاته المؤقتة ب (النبيذ/ والجلوس في دهن البنفسج) وآليته في تنشيط إنزيم "الاستراحة النفسية" وترجمته سلسة النيكلوتيديد إلى" مرض المالنخوليا" وذلك بعد قراءة "التشنج" الذي تعرض له؛ نتيجة سوء مزاج يابس، وحينما حدث خلل بموت الطبيب، تكونت الطفرة البيولوجية "ادعائه الألوهية" بصفتها علاجًا مؤقتًا لصراعه النفسي، هذا المخدر أصبح "كودًا" مؤقتًا للحاكم يستخدمه أعوانه لمزيد من التسيد والتسلط على محيطهم، وبذا يشكل جين "فساد الفكر" استعارة ذهنية، وعلامة إخبارية وتفصيلية تفسر السلوك الاضطرابي لمراسيمه وقرارته، فضلًا عن كونها رمزًا وأمارة تحيل إلى ديكتاتورية السلطة وجنون العظمة عند الحاكم بأمر الله.

<u>ب-نمو الشفرة العضوية في النص سيميائيًا.</u>

لقد تكاثر جين "فساد الفكر" بيولوجيًا داخل النص الروائي معتمدًا على خاصيته الأولى في الترميز والتوظيف للإحالة الضمنية إلى مظاهر الاضطهاد والقمع التي عاصرتها الشعوب أثناء فترة الحاكم بأمر الله، وبذا يتنوع التوالد للعلامة ما بين (توالد الموضوع، وتوالد عنصر المؤول، وتوالد الممثل)، فكشفت عملية النمو للعلامة مكتملة الأركان عن لوحة فنية وجمالية لفائض المعنى الذي يختزل داخل فساد الفكر واضطرابه؛ ومن صور الدلالة الموحية بالنمو الموضوعي داخل النص الروائي:

١-التكأة التخيلية لأحداث صباه، ويحكي فيها الحاكم مختالًا بقدرته على القتل قائلًا:" وأنا دون العاشرة ... أختفي وراء غصن ملفوف بالأوراق، فلا ينتصف النهار حتى تكون الغصون الدبقة قد اكتظت بضحاياي من الطيور والحشرات فآخذ القريبة منها فأخنقها أو أذبحها، وأنال الأخرى بهراوة ساحقة"((٢٢))، لاسيما والمحاكاة التخيلية لشطحات الحاكم النفسية بادعائه الألوهية ومنها قوله:" من

(٢٢) بنسالم حميش: مجنون الحكم، ص٢٢٣.

أهلني منكم ووافقه التوفيق، خلعت عليه خلعًا سنية، وحملته على فرس مسرج في موكبي، وباركته في السر ورحبت، أما الذي دعا إلى ربوبيتي عبثًا ولم تساعده السواعد ولا الأهواء، فبرئوا ساحتي من رسوبه، و أقيلوا ناسوتي من دعواه، و أقيلوني منه... وأضاف الحاكم قائلًا: إن أردتم يا دعاتي أن تدعوا الناس إلى تأليهي، عليكم بجبال الشام، فإن أرضها بكر وأهلها سريعوا الانقياد والتعصب. وما عادا هذا الصقع فما أصعب ربوبيتي على الناس! وما ادعاهم إلى تزنيد الفتن الكبرى! لكم أبغي يا دعاتي، أن أحلق كالإله فوق تفاصيل حياة الناس وأعلوا على صغائرهم! لكنهم تكاثروا، وتفاسدوا، وأعاقوا جموحي"(٢٣)، فضلا عن التبرير التهكمي الذي تقدمه ذاكرة النص الروائي صانعة استعارة رامزة لأسباب الامتداد الزماني للحكم الديكتاتوري من خلال مقولة الحاكم لشعبه:" وحق العين التي لا تنام لابد لكم من استبدادي ومن جريان سيفي بينكم شفاء لكم من الظلم ووقاية وحتى تظل مصر كما كانت وأبتغيها لا يقطنها إلا راع ورعية"(٢٤).

كما كان للدلالة الخفية الشارحة لاضطراب سلوكيات الحاكم داخل صورة تقديم القائد الفضل "الثائر أبي ركوة" ميتًا بصفتها انعكاسًا نفسيًا للوجود الإنساني ولعلاقة الحاكم بالآخر داخل هذه الحقبة حيث:" أخذ الحاكم من الفضل خنجره غير آبه لكلامه، فانحنى على جثة أبي ركوة وشق حلقومه حتى سال منه الدم، ثم استقام ومسح يديه في ثياب الفضل، ورد إليه خنجره قائلًا: "سلاحك متآكل يا فضل، وإياك أن تعول عليه عند الشدة، فاشحذه أو بدله، وغادر المكان مرددًا وليعدن المتطاولون المتنطعون النهازون الذين لا جدوى هم ولا فضل... وقبل أن يغيب صاح يأمر العبيد: خذوا جثة الثائر، وعلقوها في أذن أبي الهول حتى تتداول عليها الفصول، فتضحوا هشيمًا تذروه الرياح"((٢٥))، وتحمل هذه الصور في طياتها معاني محايثة للوضع الاجتماعي لفترة الحاكم بأمر الله، فتكشف عن علاقة الحاكم بالآخر ك(الحيوانات- الرعية- جنوده- المتمردين) وبالوجود والتاريخ أيضًا، فجين فساد الفكر لهذه الحقبة يمثل مدلولًا متعاليًا على الفهم، كما يشكل صياغة للمفاهيم الوجودية التي تم تعميمها من قبل الحاكم بصورة اضطهادية، فيتحرك الجين من المعنى اللغوي الممثل في ذاكرة النص الوسيط بصعود تدريجي إلى مستوى لغوي آخر في كل توالد إيحائي

(٢٣) بنسالم حميش: مجنون الحكم، ص١٠٦.
(٢٤)بنسالم حميش: مجنون الحكم، ص٢٣.
(٢٥) بنسالم حميش: مجنون الحكم، ص١٩٧.

استعاري، وبذا ينتقل من علامة" الاضطراب العقلي" في المشهد الأول والثاني إلى علامة" الاضطهاد والقمع للشعب" داخل المشهد الثالث والرابع، وبصفتها علامات رامزة وأمارة تشير إلى العلاقة التجاورية بين الحاكم المختل عقليًا ومظاهر القمع الوجودية للرعية، وإلى العلاقة الاعتباطية التي تتفاعل في تواصلها عن قانون السفك والقتل وتكميم الرأي الآخر، وبهذا يتحكم الجين في التحولات الدلالية لاضطرابه النفسي والعقلي حيث يقدم من خلال هذا الاضطراب حمولة أنطولوجية تعمل بصفتها خيطًا تواصليًا يربط الصناعة الوظيفية للذاكرة الروائية بالسياقات الاجتماعية للذاكرة الوسيطة لوجود علاقة مشابهة، فالذاكرة تشتغل بصفتها آلية تواصلية تتمكن من النص الروائي كي تصنع الواقع المعيش لا بصفتها تكأة جمالية أو إسقاطًا رمزيًا يكثف من الرسالة التواصلية، إنما لكونها تصنع وتقدم فهمًا ثقافيًا للكينونة.

ومن هذه القصدية، ينمو الممثل داخل النص الروائي بتكرار مفردات الذاكرة الوسيطة وتراكيبها، وبخصوصية تصف خلل الحاكم بصورة أكثر دقة وعمقًا وإثارة للدلالات المصاحبة، فتطرح الذاكرة السؤال التهكمي داخل مشهد المؤرخ مع الحاكم إذ يقول:" أراك يا سيدي في هذا المساء ميالًا إلى سوء المزاج، فهل أطلب طبيبك أو أجلسك في دهن البنفسج؟ - الحاكم – لا طب ينفع في اليوم ولا عقاقير، لا تخفيف من قرحتي ودائي إلا بالتحريق، حزني أوسع من أن يفهم حزني أوسع من أن يعذر!"((٢٦))، وهكذا تنمو العلامة مكتملة الأركان داخل هذا المشهد حاملة الدلالة الضمنية لمظاهر التعسف والاضطهاد التي يعاصرها كل من صاحب أو عاصر الحاكم بأمر الله، لاسيما وتسليط الضوء على علاقته التواصلية المصحوبة بالتوتر مع الآخر، فتبرز العلاقة الاعتباطية داخل الصورة الذهنية لكلمة "التحريق" مشكلة حلقة تأويلية مفتوحة العوالم والدلالات.

وهكذا، فإن النمو الجيني يشكل نموًا استعاريًا يجدد القوة الرمزية لإعادة الخلق الدلالي للذاكرة؛ ومن صور تحقق هذا الخلق الإبداعي توالد عنصر المؤول: داخل الخزان التخيلي للعلامة الوصفية الإخبارية عن علاقة الحاكم بالنساء في عصره إذ يقول:" وذات يوم، قمتُ عن بكرة أبي وقلت للنساء اللواتي شاركنني فراشي: حدث لعمري رائع أن أطرحكن في توابيت مسمرة، وأرمي بالتوابيت في جوف النيل...

(٢٦) بنسالم حميش: مجنون الحكم، ص٢٠٩.

وهجرتهن، ورحت في ربوع الفجر، عائداً إلى الانشغال بشم الورد والانصات لحفيف أجنحة الطيور"((٢٧)). فضلا عن العلامة البرهانية والزمانية التي تصور الحمولة الثقافية الاجتماعية لعصره داخل أحد مراسيم الحاكم مقررًا:" أعلن انا الحاكم بأمر الله، قلب المواقيت والمواعيد، وأشرع لكم العمل ليلًا والنوم نهارًا، وأمنع عليكم التجول في المدينة بعد طلوع الشمس، او التجمع خارج البيوتات وتلويث خلاء الطرقات، فإياي ونقض أوقاتي، فإني لا أوتي بمخالف إلا سفكن دمه. وحتى إشعار آخر، لا مرد لمرسومي ولا تخفيف فيه"((٢٨)).

كما كان لتقديم استعارة الذاكرة الوسيطة ومحاكاتها حول أسباب حرق الشونة تكأة جمالية تجاوزت فيها الكشف عن الحمولة المعرفية إلى إيضاح الأثر البلاغي والجمالي لهذا التوالد، وبصفتها معادلة للواقع فقد وظفت الانعكاس الوجودي لقرارات الحاكم حيث يوضح للمختار سبب قراراه بالحرق قائلًا:" وتتذكر أيضًا أني أحرقت الشونة لتمتيع ناظري بمشهد النار. كان الأمر لهوًا ومزاحًا في تلك الأيام، أما ناري المقبلة فلتعريض البطائق وصانعيها للإتلاف والانتقام"((٢٩))، وبهذا فإن المعنى المجازي داخل كل مشهد يعمل بصفته دالًا رمزيًا يحيل إلى مدلول آخر محايث، فتنفتح العلامة على التأويل وينمو عنصر المؤول الأول" جنون الحاكم" بصفته ممثلًا يشير في المشهد الأول إلي عنصر المؤول الثاني هو" الحجر على النساء" واضطهادهم فتمثل علامة الصمت والخنوع للنساء أمارة تشير إلى مظاهر الحجر والقمع النفسي والتهميش التي عايشتها المرأة في عصر الحاكم، وتحمل علاقتها التجاورية مع فترة الحاكم تصاعدًا لعوالم القتل والاضطهاد.

في المشهد الثاني: ينفتح التأويل على عنصر مؤول ثالث" القمع والقهر" وتصبح علامة "العمل على المرسوم" من قبل الشعب أمارة ورمزًا تحيل إلى تأقلم الشعب المصري مع الأوضاع التعسفية والآلية الديكتاتورية لنظام الحاكم السياسي، وفي المشهد الثالث: تنفتح حلقة التأويل على عنصر مؤول رابع وخامس ينتقل من" النظرة المهمشة للآخرة إلى وصف الآخر بالمذنب" وهو بذلك يتخذ من علامة "موت الرعية" في مشهد حرق الشونة؛ أيقونة ورمزًا يحيل إلى جنون العظمة

(٢٧) بنسالم حميش: مجنون الحكم، ص٧٣.
(٢٨) بنسالم حميش: مجنون الحكم، ص٤٣.
(٢٩) بنسالم حميش: مجنون الحكم، ص٢٢٠.

وهوس الأنا لديه، في حين يتخذ من علامة" الرفض بالبطاقات" للرعية على سلطته وسطوته أمارة برهانية تشير إلى تهديد عرشه وسطوته، فيتحرك الخلل العقلي من خلل نفسي إلى هوس القتل وجنون العظمة والديكتاتورية، وتصبح الرعية متهمة بالذنب ويجب معاقبتها بكل وسائل التهذيب والتكميم.

ومن ثم، ترتبط الموضوعات المتولدة عن الممارسة الاستعارية داخل النص الروائي بالعصرالفاطمي ثقافيًا واجتماعيًا، حيث يوظف الكاتب الحمولة الثقافية للعصر الفاطمي بقوة رمزية تحيل إلى العلاقة التجاورية بين ديكتاتورية النظام السياسي والمرض النفسي لأصحاب السلطة والسطوة، وتبدأ بقوة اقتناع النظام بطبيعة سلوكياته وأحقية نفوذه، وأعماله الخيرة التي تخلد ذكراه من خلال حقبته التاريخية؛ بتصرفات جنونية تبرز الاستعارة الفنية للعالم الموازي عن قرارات النظام السياسي وأحكامه التي يخالف فيها واقع الرعية الاجتماعي وملابساته، وما بين عناصر الفساد والظلم تبدو الدلالة الخفية للبنية التحتية للمجتمعات الفقيرة بثنائية من الصمت والقبول، ومن ثم فإن الجين يتطور مصحوبًا بتفاعل الثابت والمتغير من السياق وبصفته معلومة وراثية للنص الجديد ينبني عليها عوالم الممكن والمتخيل من شفراته الوراثية، فإنه يورث بدرجات متفاوتة تتدنى فيها قوة سيطرة الجين أحيانًا في النص المتوالد فيتراجع أمام الصفات المكتسبة مثلما حدث في نمو عنصر المؤول، وأحيانًا أخرى تزداد قوته الاستهلاكية، فيصبح النص الرئيس للنص الجديد كما في النمو الموضوعي ونمو الممثل.

هذا، وتهدف آلية الذاكرة إلى البحث في طبيعة النقلة الإبستمولوجية للأحداث داخل الخطاب من الوعي الفردي(الحاكم) إلى الوجود الجمعي (ثقافة العصر)، وأمام تحولات الخطاب وفرضياته حول مرجعية العصر تنفتح حلقة التأويل على سيرورة الفساد وانعدام الأخلاق وديكتاتورية العرش، بانية نظامًا هرميًا للطبقات الاجتماعية، كما إن التمثيل الرمزي للسياق السياسي كشف اللثام عن الدعاة الجهال متصنعي البلاط فتنتقل مسالك الدلالة من حاكم مجنون نحو مستغلي الفرص في كل زمان ومكان؛ ومن صورهم "حمزة بن علي، والداعية حسن بن حيدرة الفرغاني المكنى بالأخرم و"محمد بن إسماعيل الدرزي"، وبذا يتوالد الجين تلقائيًا مقدمًا علامة جديدة داخل السلسلة الوراثية للتخبط النفسي والتنازع العقلي للحاكم، فالكاتب لجأ إلى بث مشاهد معاناة الحاكم مع نفسه داخل الجفنة؛ ليحرك الدلالة ضمن مبدأ القصد والكفاية، فيحيل القارئ إلى تخيل النهاية المتوقعة لحكم الحاكم، فعملية التوقع التي صاحبت جين المالنخوليا منذ البداية في رسم تداعيات سلوكياته على يد يحيي بن سعيد الأنطاكي قد صاحبتها عملية تدافع لتصاعد جين الاضطراب والهوس للحاكم

بأمر الله، فيتحول صراعه النفسي إلى أداة تورث النص تحريكًا ديناميًا لفضاء الأحداث، ويتحول عنصر المؤول في علاقته داخل النص بعلاقة العلامة في ثالثانيتها (الرمز) حيث طبيعة تأويل نهاية أمر الحاكم بالقتل دون توقع لصورة القتل التي قد تتجاوز حدود التوالد لجين الوقائع، فالتتابع حدث نتيجة التأثير والتأثر بصفات المعلومة الوراثية وعلاقة التجاور بالأمارة في ثانيانيتها.

وبالرغم من التوزيع المستقل لكثافة العلامات فإن احتواءها بعض سمات الأيقونية الخاصة أكسب العلامة في أولانياتها استدعاءً ضمنيًا للنصوص الوسيطة، حيث تقيم تقاربًا بين المرجعية المنهجية والحمولة المعرفية، ودورها في إعادة تشكل نص جديد وتطويعه وإنتاجه.

وانطلاقًا مما سبق يستنتج البحث ما يأتي:

١- تكشف الذاكرة الثقافية للفضاء السيميائي في النص السابق عن الكواليس المخبوءة من المناطق المعتمة والخافتة في ثقافة المجتمع، وتعطي صورة غنية بالصراع بين المركز السياسي المسيطر والهامش المتمرد وخبايا ثقافاته مثل ثقافة القمع والشذوذ والكره والاحتقار.

٢- تظهر ذاكرة النصوص الثقافية التاريخية والأدبية فاعلية مزدوجة في ديناميكية الاتصال بين الأكواد الجينية و الثقافية وذلك على المستويين التعاقبي والتزامني معًا.

٣- حشدت الرواية بأكواد اشتغلت وظيفيًا بديناميكا عالية ومكثفة، فقد كشفت عن ثقافة الماضي وأعادت صناعته بصفته نظامًا يتفاعل مع الأنظمة الثقافية الأخرى داخل الفضاء السيميائي للرواية.

الخاتمة.

في إطار ما طرحه البحث من رؤية سيميائية بيولوجية لدراسة صناعة الذاكرة الثقافية في النص الروائي فإنه يمكن القول إن السيميائيات البيولوجية مجال بيولوجي يتكئ على موسوعية إنتاجه من الشفرات العضوية واللاعضوية؛ التي تدرس البناء الثقافي والعقلي؛ ونظرًا لما تقدمه هذه الدراسة الأدبية إلى المجتمع من أشكال التواصل والدلالة فإن آليتها في فهم الثقافة وتفسيرها لا يقف على الأبعاد الثنائية لفهمها بصفتها مادة للدراسة السيميائية بل تتجاوزها إلى كونها ظاهرة تواصلية وإدراكية تستعين بأنساقها الفرعية في إنتاج المعنى وتأويله، إذ لم يكن الأمر باليسير في رصد شبكات المعنى داخل النصوص الرسمية والشعبية والأدبية وقدرتها على تجسير وصناعة المعنى الثقافي داخل النص الروائي كما كان لصعوبة الإلمام بالنظريات السيميائية ومصادرها دور في صعوبة الوقوف على دورة حياة المعنى داخل السيموزيس، وقد طورت الدراسة من النظريات مستهدفة الوقوف

على الجين العضوي داخل حمضه النووي بصفته استعارة مجازية تتشكل حول الكلمة مما يبرز آلية الذاكرة في إعادة إنتاجها للواقع الثقافي مستهدفة تتابع التوقعات المستقبلية للنص؛ فقد كان هدفي الرئيس تعريف الدارسين بمنهج السيميائيات البيولوجية وعلاقة الذاكرة الثقافية بالأكواد الجينية وقدرتها على صناعة النصوص الروائية، مما يسهم في الكشف عن انفتاح العوالم الثقافية وتباين صلة المعنى بالكود واختلافها بالمتغير والثابت من الإحالات المرجعية، كما يفعل مستويات الحوار والترجمة لهندسة الفعل الثقافي وراثيًا وإشكاليات تداوله داخل المسارات التوالدية للزمان والمكان.

أولًا-النتائج:

وقد خلصت الدراسة إلى ما يأتي:

١- تستهدف الدراسة السيميائية البيولوجية؛ إنتاج سلسلة من قواعد المعنى وتداول آلياته التي تسمح بالتواصل لخلق حوار بين الأنا والآخر.

٢- تشكل الدراسة البيولوجية والثقافية المنهج الأمثل لدراسة التواصل من خلال الأبنية الواصفة سواء كان بناء لغوي أو سنني.

٣- قدرة النموذج السيميائي البيولوجي على كشف عملية صناعة المعنى وإقامة علاقات ملموسة بين أكواد المعرفة والعالم من خلال البنية الرمزية العميقة للغة.

٤- تشتغل الذاكرة عبر مصافيها الانتقائية منتجة نموذجها الخاص(كودها الجيني الخاص) للاشتغال والتداول.

٥- تبدو فكرة شبكات المعنى داخل الأكواد فكرة منتجة لدور الذاكرة المركزي وآليتها الإنتاجية لا بصفتها خزانًا تداوليًا بل بصفتها نسقًا متحركًا وديناميًا لا يحيا إلا في البعد الخارجي لإعادة تصنيعه.

٦- ارتباط المعنى أثناء نموه وتكاثره بدينامية المصافي الأيديولوجية والثقافية لحركة التاريخ.

٧- حققت عملية رصد المعنى داخليًا على مستوى الكلمة وخارجيًا على مستوى النمو الثقافي للعلامة من خلال النمو الجيني كثافة أكبر من غيرها وذلك لأن النمو الجيني يقيم علاقات وترابطات بين تحقق مكونات النص القديم داخل الكلمة ودورة الكلمة داخل مكونات النص الجديد مما حقق وقدم للنص الروائي ديناميكا وكثافة أكبر من غيره من التحليل السيميائي.

ثانيًا-التوصيات:

توصي الدراسة بالآتي:

١- الاهتمام بالمجال الثقافي والبيولوجي لكشف المعنى وسيرورة تلاعبه وتناقضه داخل العوالم الثقافية للنصوص الأدبية.

٢- تسليط الضوء على هذا النوع من الدراسات التي تستحق الاهتمام بمفاهيمها وإدراك قضاياها واستراتيجياتها في التحليل.

٣- فتح الباب أمام المهتمين والمتخصصين في النقد العربي، للنظر بتمعّن في قضايا السيميائيات الثقافية والبيولوجية؛ ما دامت تركز على إشكالات فلسفية ووجودية عرفت بامتدادها البيني داخل الحقول المعرفية والقضايا التي تنتمي إلى التجربة الإنسانية.

قائمة المراجع.

أولًا-الكتب العربية.

١. جمال الغيطاني: الزيني بركات، ط٢، دار الشروق، ١٩٩٤م.

١. حسيب الكوش: البيوسيميائيات، من الطاقة إلى المعنى، ط١، الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع،٢٠١٩م.

٢. ابن خلدون: المقدمة، تح: عبد الله محمد درويش، ط١، دار يعرب، ٢٠٠٤م.

٣. سالم حميش:

-مجنون الحكم، ط١، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

-هذا الأندلسي، ط٢، دار الآداب، بيروت، ٢٠١١م.

١. ابن سبعين: رسائل ابن سبعين، تح: عبد الرحمن بدوي، ط١، الدار المصرية للتأليف والنشر،٦٦٩هـ.

١. عبد الله بريمي: السيميائيات الثقافية مفاهيمها وآليات اشتغالها(المدخل إلى نظرية يوري لوتمان السيميائية)،ط١، الأردن: دار كنوزالمعرفة، ٢٠١٨م.

ثانيًا-الكتب الأجنبية:

1. **PAUL COBLY: Cultural Implications of Biosemiotic, Biosemiotic15, Springer Science+Business Media Dordrecht, 2016.**
2. **Tommi Vehkavaara , Natural Self-interest, Interactive Representation, and the Emergence of objects and Umwelt: An Outline of Basic Semiotic Concepts for Biosemiotics,(Sign Systems Studies,2003, P.31.2.**

ثالثًا-الدوريات العربية:

علوي الملجمي:

- **تشارلز ساندرس بيرس وجاكوب فون أكسيكيول في السيميائيات الحديثة، مجلة دراسات فلسفية، العراق: بيت الحكمة، ع٥١، يونيو، ٢٠٢٣م.**
- **ذاكرة المثل الشعبي في محافظة البيضاء اليمنية دراسة في ضوء السيميائيات الثقافة، مجلة الموروث، دورية إلكترونية، ع٢٥، مارس ٢٠٢٢م.**
- **المعنى والبلاغة والسيميائيات الحديثة، عالم الفكر، ع١٨٩، يناير-مارس ٢٠٢٣م.**

رابعًا-الدرويات الأجنبية.

Kale Kalevi Kull :

- **Biosemiotics In the twentieth Century: A view from biology, 0037.**

-Towards Biosemiotics with Yuri Lotman, Semiotica, Special Issu, 1999, 127, 1/4.